واقع اللغة العربية في الجزائر ورهانات المستقبل

أ. د. محمد زرمان ـ أ. د. عبد السلام ضيف

مقدمة

تجمع كثير من الأبحاث والدراسات المهتمة بمسار اللغة العربية في الجزائر في العصر الحديث على أن واقعها اليوم لا يبشر بخير، فحضورها ضعيف على مستوى التعليم والإدارة والإعلام، وتأثيرها محدود جدا في مختلف الميادين الحيوية، ومستواها يتدنّى يوما بعد يوم لعدة أسباب وجيهة يأتي على رأسها الإرث الاستعماري الثقيل الذي خلفه الغزو الفرنسي الطويل للبلاد وما صاحبه من حرب ضروس ضد الحرف العربي، وتجفيف منظَّم ومتَعَمَّد لمنابع الثقافة العربية الإسلامية وتكريس مُمَنْهج لمشروع الفَرْنَسَة، مما أسفر عن تغييب يكاد يكون تاما للغة العربية من جميع القطاعات الحيوية في المجتمع، وتفشّ واسع للأميّة وللعربية الدارجة المطعّمة بالرطانات الأجنبية.

ثم تأتي اللغات الأمازيغية المحلية المنتشرة في ربوع البلاد والتي عايشت اللغة العربية منذ انتشار الإسلام فيها، وظلت لقرون محصورة في حدود ضيقة، في الوقت الذي كان أبناؤها مقبلين على العربية يتعلمونها ويكتبون بها بفخر واعتزاز دون أية عقد، لكنها أضحت اليوم تمارس ضغطا شديدا على اللغة العربية وتناصبها العداء، بعد أن تولّت هيئات ومنظمات ذات أهداف مشبوهة مهمة إحياء هذه اللغات وإعطائها الصفة الرسمية لتنافس اللغة العربية على لسان أبنائها، وتقرنها بها في الأهمية بل وقد تستبعدها تماما بحجة الحفاظ على الهوية. وقد تضافرت هذه الأسباب جميعا مع موجات العولمة التي اجتاحت العالم في العقود الأخيرة، والتي كرّست نفوذ اللغات القوية بما تملكه من قدرة فائقة على إنتاج المعرفة وتطوير التكنولوجيا فاستقطبت اهتمام الجزائريين بكل فئاتهم ووجدوا أنفسهم مدفوعين بقوة للاستفادة من هذا المعطى التقني المدهش فاتسع استعمالهم للغات الأجنبية وبخاصة اللغة الإنجليزية على حساب العربية. وعلى الرغم من هذه الظروف الصعبة التي تعيشها اللغة العربية في الجزائر اليوم، فإن الآمال قائمة في أن يتغيّر هذا الوضع في المستقبل، فيتحسن واقعها وتتمكن من استعادة فعاليتها ونشاطها وحيويتها إذا وجدت الوعي الكافي بأهميتها على المستوى الشعبي، والاهتمام اللازم بها على المستوى الرسمي، فهناك قطاعات كبيرة في الجزائر لديها الرغبة الصادقة في تطوير العربية وتحسين مستواها، واستعادة مكانتها لتكون هي الأداة المثلى للتنمية الشاملة والسبيل الوحيد للنهضة المنشودة، لكنها تصطدم دائما بالعراقيل التي يصطنعها خصوم العربية في الجزائر من أنصار التيار الفرانكفوني الذين يتحكمون في جميع دواليب الدولة. وتهدف هذه الورقة إلى دراسة واقع اللغة العربية في الجزائر، ومحاولة رسم آفاقها المستقبلية من خلال الوقوف عند أبعاد المؤامرة الاستعمارية الفرانكوفونية التي لا تزال تقف إلى اليوم عائقا وتمثل تحديا قويا أمام أي تطور للغة العربية، وتتبع تأثيرات الدعوة إلى إحياء اللغات المحلية التي يسعى أصحابها لتكون بديلا عن اللغة العربية في الجزائر، وتحليل الآثار السلبية الناتجة عن تمدد العامية في الواقع الجزائري، ورصد الضغوط الكبرى التي تمارسها ظاهرة العولمة على اللغة العربية وبخاصة على مستوى الإعلام الجديد، حيث أصبحت شبكات التواصل الاجتماعي مثلا ميدانا لمجازر يومية ترتكب في حق العربية من طرف أبنائها، والانتهاء إلى رسم معالم إستراتيجية شاملة لتطوير اللغة العربية على كافة المستويات.

أولا: المؤامرة الاستعمارية الفرانكفونية في الجزائر وأبعادها

دخلت اللغة العربية إلى الجزائر في ركاب الفاتحين المسلمين، وبدأت تنتشر بين السكان الأصليين توازيا مع إقبالهم على اعتناق الإسلام ورغبتهم في التفقه فيه. وقد أحدث الإسلام بدخوله إلى البلاد ـ كما هو شأنه في

كل مكان - ثورة علمية بدعوته إلى طلب العلم، وإعمال العقل، وتسخير الكون، فانتشرت المساجد والمدارس والمعاهد في ربوع الجزائر، ونشأت حركة ثقافية نشيطة أسهمت بقوة في نشر العربية وترسيخ جذورها، فغدت في زمن وجيز اللغة الأولى في مرافق الدولة الحيوية مع احتفاظ السكان الأصليين بلغتهم الأمازيغية الأم، يستعملونها في بيوتهم واجتماعاتهم اليومية، ولم يروا في إقبالهم على تعلم العربية ما يتناقض مع ذلك، الأمر الذي أدى إلى تسرب كثير من المفردات العربية إليها.

وفي ظلال الإسلام، تحولت الجزائر إلى جزء من الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة، وأصبحت عضوا نشيطا يمد حضارتها الصاعدة بما تجود به قرائح أبنائها في العلوم والفنون والآداب، وبما تنجبه أرضها من نوابغ في السياسة والإدارة والقيادة، وظلت تعيش حالة من الانسجام اللغوي الرائع بين الأمازيغ والعرب الذين اندمجوا في كتلة سكانية واحدة عن طريق المصاهرة طيلة ثلاثة عشر قرنا، ولم تهتز هذه التركيبة إلا بحلول الاحتلال الفرنسي بالجزائر عام ١٨٣٠م.

لقد كان الاحتلال الفرنسي فاجعة من أكبر الفواجع التي نُكِبَت بها الجزائر، إذ كان استعمارا إستيطانيا حاقدا، بنى أمره منذ أول يوم على تحويل البلاد - بأي ثمن - إلى قطعة تابعة لفرنسا في العادات والتقاليد واللغة والثقافة والفكر، واقتلاعها من جذورها التاريخية اقتلاعا كليا، يضمن تبعيتها الأبدية له.

من هنا بدأت مأساة اللغة العربية في الجزائر، حيث استهدفتها الحملة العسكرية الفرنسية في المدارس والمعاهد التي وضعت يدها عليها، فحوّلت بعضها إلى مدارس فرنسية، وسلمت بعضها للبعثات التبشيرية لتمارس من خلالها حملتها التنصيرية، واستعملت بعضها الآخر اصطبلات للخيول ومخازن للمؤونة والذخيرة١، وهدمت كثيرا منها، وعبثت أيدي الجنود بالمكتبات العامة والخاصة، وتم تشريد الطلاب وملاحقة العلماء والمعلمين٢ في محاولة جدية لتجفيف كل منابع الثقافة العربية الإسلامية، وطمس معالم الشخصية الوطنية الجزائرية، وتحطيم كيانها الحضاري والتاريخي، وعززت هذه الجهود التدميرية بجملة من القوانين الجائرة التي تنص كلها على تحريم تعليم اللغة العربية، وتعاقب بشدة كل من يحاول فتح مدرسة أو كُتَّاب دون إذن أو ترخيص من الإدارة الاستعمارية، وأجرأ هذه القوانين وأشدها لهجة قانون ٨ مارس ١٩٣٨م الذي أصدره وزير المعارف الفرنسي (شوطان Chautemps) يعتبر فيه العربية لغة أجنبية ويعد تعليمها ونشرها بين أبناء الجزائر "محاولة عدائية لصبغ الجزائر بالصبغة العربية"٣.

وبالموازاة مع هذه الحرب الشرسة ضد العربية، قادت حكومات الاحتلال الفرنسي طيلة العهد الاستعماري حملات واسعة لنشر الفرنسية وتثبيت دعائمها في البلاد، حيث تمَّ تعميمها على المؤسسات التعليمية والمراكز الثقافية، والمؤسسات الإدارية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية، وفُرِضَت كلغة رسمية وحيدة في الجزائر، فقد:"كان التعليم أيام الحكومة الفرنسية استعماريا بحتا لا يعترف باللغة العربية، ولا يقيم لوجودها أي حساب في جميع مراحل التعليم"٤.

ولم يفت الاستعمار أن يستغل وجود اللغة الأمازيغية ليفتح بها ثغرة في جدار الوحدة الوطنية، ويحارب بها العربية بين أبنائها، حيث نشطت دوائره في بث دواعي الفرقة بين الجزائريين وتصنيفهم إلى عربي وبربري وتأليبهم على بعضهم بعضا بمساعدة جماعة النخبة التي تشربت الثقافة الفرنسية وتشبعت بها وأصبحت يدا تبطش بها إدارة الاحتلال بالوطنيين ورجال الإصلاح، وصبّت كل جهودها في محاربة العربية أكثر من خدمة الأمازيغية التي تدَّعي الدفاع عنها.

وبعد أن تجاوزت الحركة الوطنية بشقيها الثقافي والسياسي٥ كل هذه العقبات ونجحت في توحيد جهود الشعب في اتجاه واحد، وتمكنت من تحطيم القوة الاستعمارية وإرغامها على الانسحاب من الجزائر، تنفس الشعب الصعداء، واستبشر خيرا، آملا أن يتمكن من استعادة هويته التي تعرضت لكل صنوف المسخ والعدوان في ظل الاحتلال. وقد عملت الحكومات الجزائرية بعد الاستقلال على إعادة الاعتبار للغة العربية بجعلها لغة البلاد الرسمية في التعليم والإدارة والإعلام وغيرها من القطاعات، إلا أن اللوبي الفرانكفوني الذي كان يتمتع بنفوذ